الفصل الخامس والعشرون

روسيا لنا

لم يتوقع بوتين أن الأزمة التي انفجرت قبل أولمبياد سوتشي قد انتهت، مع أنه كان يتوقعها قبل ست سنوات، عندما حذر الرئيس بوش من أن حلف شمال الأطلسي يجب ألا يعمل على ضم عضوية أوكرانيا، ومع ذلك أمر بوتين بإعادة تنظيم القوات الروسية التقليدية لمعالجة الخلل الذي كشفته الحرب في جورجيا في عام 2008م، ومع أنه راقب هو ومستشاروه بحذر التشنجات السياسية في كييف الناجمة عن رفضها الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، فإنه لم يكن يعتزم أن يسير ببلاده إلى الحرب، ولم يكن مستعدًّا في البلاد لذلك، ولم يتشاور مع الدبلوماسيين في البلاد أو القادة العسكريين، وبالتأكيد ليس مع المشرعين المنتخبين، الذين لم يعد لديهم أي تأثير في الطريقة التي يحكم بها. وفي ليلة 18 فبراير/شباط، بعد انحسار احتجاجات الشوارع في كييف، وبعد أن أنقذ بوتين الاقتصاد المتداعي ليانوكوفيتش بـ 15 مليار دولار، اندلعت موجة من العنف عندما حاولت شرطة مكافحة الشغب إخلاء الشوارع المحيطة بميدان الاستقلال، وبحلول منتصف الليل كان أكثر من عشرين شخصًا قد لقوا حتفهم، وجلُّهم من المتظاهرين، وكان بعضهم من ضباط الشرطة. وقبل فجر اليوم التالي أصبحت هناك حرب مفتوحة في وسط المدينة بين الشرطة والمتظاهرين، تبادلوا فيها إطلاق النار، وسرعان ما ارتفع عدد القتلى لأكثر من مئة في أسوأ أعمال عنف في المدينة منذ الحرب الوطنية العظمى.

التقارير التي وصلت إلى بوتين في الكرملين، ومن ثم على شبكات التلفاز الروسية، صورت الاشتباكات كما لو كانت عصيانًا مسلحًا، وبتحريض من الدبلوماسيين الأمريكيين والأوروبيين الذين لم يشجعوا فقط المحتجين، وإنما يزودونهم بالطعام والكعك أيضًا.

منذ نوفمبر/تشرين الثاني تطورت المظاهرات السلمية، التي انطلقت على نطاق واسع تأييدًا للاتفاق مع الاتحاد الأوروبي، إلى حركة أوسع تنادي بإسقاط النظام الفاسد ليانوكوفيتش. كان في الساحة جماعات متطرفة- ملثمون مسلحون من مجموعتين قوميتين شرستين؛ سفوبودا وبرافي سيكتور- وقد أقنعت بوتين أن يانوكوفيتش فقد سيطرته على قوى الفوضى والفاشية. بوتين لم يفهم المظالم الأساسية التي أبقت غالبية المحتجين في الشوارع خلال تلك الأشهر من فصل الشتاء، والتوق إلى الخروج من قبضة فاسدة لزعيم جشع، والتطرف الذي نشأ عندما ذهبت معظم مطالبهم الأساسية أدراج الرياح، وكان يعتقد أن بإمكان الرئيس شراء الذمم ومن ثم شراء الشعب معه، كما فعل في روسيا خلال أربعة عشر عامًا بسخاء اقتصادي وظّف في اللحظات الحرجة. وكما كتب الكاتب جيمس ميك عندما تحوَّل المحتجون في كييف إلى العنف في ذلك اليوم من فبراير/شباط، «هذا هو المثل الأعلى للساخر كامل السخرية، فلاديمير بوتين، المثل الأعلى الوحيد للساخر الكامل الذي يمكنه أن يكونه: أن الناس لم يعد لديهم أية مُثل»[1].

هرع دبلوماسيو الترويكا الأوروبية؛ وزراء خارجية فرنسا وألمانيا وبولندا، إلى كييف في 20 فبراير/شباط للتوسط لإيقاف العنف حول الميدان. ولما كان بوتين منشغلًا بدورة الألعاب الأولمبية في سوتشي، فإنه لم يقل شيئًا في البداية، وهذا ما ترك رد فعل روسيا في حالة من الشائعات والخلط. دان وزير الخارجية الروسي، سيرجي لافروف، جهود الأوروبيين، ووصفها بأنها «مهمة غير مرحب بها» حتى وإن كان يانوكوفيتش نفسه قد جلس يستضيف الوزراء. وما إن توصلوا إلى تسوية سياسية كانوا يأملون أن تضع حدًّا لإطلاق النار في الخارج؛ من خلال إجراء انتخابات رئاسية مبكرة في عام 2014م، فضلًا عن منح العفو عن المتظاهرين، حتى أوقف يانوكوفيتش المحادثات ليهاتف بوتين، وقد رجع في ذلك الوقت إلى موسكو، فعلى

الرغم من كل الجهود التي بذلها للتظاهر بالاستقلالية، فإنه لا يستطيع عقد أي اتفاق دون موافقة بوتين. أخبر بوتين أنه سيوافق على التنحي لإجراء انتخابات جديدة، وأنه سيأمر بانسحاب شرطة مكافحة الشغب من المتاريس التي تحترق غير بعيد عن مكتب الرئاسة، فرأى بوتين في ذلك تنزُّلًا مهينًا، ومؤشرًا خطيرًا على الضعف في مواجهة الغوغاء.

ادعى بوتين أنه أبلغ يانوكوفيتش بأنه سيكون عنده فوضى، «سيكون هناك فوضى في العاصمة».

قبل يانوكوفيتش تسوية الأوروبيين على أي حال، وأُعلنت في الساعة الثانية من بعد ظهر 21 فبراير/شباط، وفي ذلك المساء بدأ حلفاء يانوكوفيتش السياسيون بالتخلي عنه، وتبددت سلطته على الشرطة وقوات الداخلية وسط تقارير موثوقة تفيد بأن مخبأ للأسلحة قد نُهب من مراكز الشرطة في غرب أوكرانيا وهو في طريقه إلى العاصمة[2].

وبعد أن أصدر بيان تهنئة لفريق التتابع البياتلون للسيدات لفوزه بأول ميدالية ذهبية للبلاد في سوتشي، غادر يانوكوفيتش العاصمة، فسافر أولًا إلى شرقي أوكرانيا، ثم سافر إلى شبه جزيرة القرم، قبل أن ينتهي به المطاف في ملجأ سري في جنوبي روسيا، ضمن عملية خاصة أمر بها بوتين يوم 23 فبراير/شباط بعد لقاء ليلة كاملة مع مستشاريه[3]. بعد يانوكوفيتش حُلَّ الاتفاق الذي توصلوا إليه لإنهاء القتال حتى قبل أن يدخل حيِّز التنفيذ. البرلمان الأوكراني، مع الموالين ليانوكوفيتش بعد أن انفصلوا عنه، صوَّت على الفور على (عزل) يانوكوفيتش، في إجراء مشكوك فيه من الناحية القانونية، ثم انتخب النواب قيادة برلمانية جديدة، وعُيِّن رئيس مؤقت لحين عقد انتخابات جديدة، وكان أول عمل تمارسه القيادة البرلمانية الجديدة هو جعل الأوكرانية اللغة الرسمية، مستثنية بذلك اللغة الروسية التي أقرتها حكومة يانوكوفيتش. وأوقف القائم بأعمال الرئيس الجديد، ألكساندر تورتشينوف، المقترح، لكن ليس قبل أن يؤجج الانقسام العرقي في أوكرانيا، الذي ما زال قائمًا منذ ما يقرب من ربع قرن من الاستقلال.

في موسكو، أكدت الأحداث في كييف أنها أسوأ ما يخافه بوتين: ما حدث لم يكن انتفاضة شعبية ضد زعيم ضعيف فقد مصداقيته، إنما ثورة اختطفها القوميون الأوكرانيون والراديكاليون التي قارنها بالجندي النازي أرنست روم، الذي جاء دعمه من أعداء روسيا؛ الأوروبيين والأمريكيين[4].

رَأَس بوتين مراسم حفل الختام في سوتشي ليلة 23 فبراير/شباط، بعد أن وضع أولًا إكليل الزهر على قبر الجندي المجهول في موسكو في ذلك الصباح. دورة الألعاب الأولمبية تلك لم تتحدَّ فقط التوقعات الكارثية الكبرى، بل انتهت بفوز الرياضيين الروس بأغلب الميداليات الذهبية التي بلغت ثلاث عشرة، ومعظم الميداليات الأخرى التي بلغت ثلاثًا وثلاثين؛ فكانت لحظة مجد روسيا، بعد سنوات من الإعداد، ولكن طغت التشنجات في أوكرانيا على كل شيء؛ فالحدث الرياضي الذي استمر ستة عشر يومًا، وكانت له الأهمية الرمزية والأيديولوجية عند بوتين وروسيا، تأتي الانتفاضة في أوكرانيا لتحمل معها مزيدًا من الإهانة لروسيا، ورأى بعض أنصار بوتين أنه قد جرى التحريض عليها بالفعل لتلطيخ هذه اللحظة التاريخية. قضى بوتين ساعات قبل حفل الاختتام يهاتف أنجيلا ميركل، ويشتكي من أن الأوروبيين لم يجبروا يانوكوفيتش على توقيع الاتفاق، مثلما أجبروه على البقاء في كييف.

لم يقل بوتين شيئًا في العلن عن أوكرانيا في سوتشي في ذلك اليوم، ولا في اليوم التالي، عندما استضاف اللجنة المنظمة لتناول طعام الإفطار، حيث زيِّنت روسيا بالميداليات وزرعت ثلاث وثلاثون شجرة، واحدة لكل ميدالية. لم يقل شيئًا، في الواقع، لتسعة أيام أخرى، حتى حين وضع مقترحًا لعملية سريَّة في صباح ذلك اليوم من 23 فبراير/شباط، المقترح الذي لا يعلم به حتى وزراؤه.

في يوم 25 فبراير/شباط، التقى مجلس الأمن الوطني للمرة الثانية منذ اندلاع العنف في كييف، والذي يضم اثني عشر عضوًا، من بينهم ميدفيديف، ووزراء الدفاع، والشؤون الخارجية والداخلية، وقادة مجلسي الشعب والبرلمان، وقادة المخابرات الخارجية، وجهاز

الأمن الفيدرالي. كان أحدهم فالنتينا ماتفيينكو، رئيسة المجلس الاتحادي، التي برزت في الاجتماع، وأعلنت أنه يستحيل أن تتدخل روسيا عسكريًّا في أوكرانيا لوقف الفوضى.

لم تعرف هي ولا كثيرون في الكرملين أن روسيا لديها حقًّا النية لفعل ذلك، فبوتين يريد معاقبة أوكرانيا بتقطيع أوصالها، وفي اليوم التالي أعلن عن مناورات عسكرية مبكرة احتشد فيها عشرات الآلاف من الجنود في غرب روسيا، فضلًا عن مقرات قيادة القوات الجوية والدفاع الجوي. التمرين خطط له ليستمر عدة أشهر، لكن التوقيت سمح للكرملين بإخفاء النشر المفاجئ للآلاف من قوات العمليات الخاصة للنخبة الروسيَّة، وكانت السرية ضرورية، فضلًا عن الإنكار. بوتين لم يكن متأكدًا من معرفة ردود الفعل الدولية، وفي مقدمتها حلف الناتو، وأراد قبل كل شيء أن يختبر عزيمة زعماء العالم قبل أن يقرَّ خطته.

قبل الفجر يوم 27 فبراير/شباط، استولت قوات خاصة من روسيا، وقوات من مقرات أسطول البحر الأسود، وقواعد أخرى في شبه جزيرة القرم، على برلمان القرم الإقليمي، والمباني المهمة الأخرى في شبه الجزيرة، إضافة إلى مطارين. كانت القوات مجهزة تجهيزًا جيدًا وتسليحًا ثقيلًا، لكن بدلاتهم العسكرية لا تحمل أي شارة؛ فقد أُمر الجنود بإزالتها. وخلال أربع وعشرين ساعة هبطت آلاف القوات الإضافية في المطارات وانتشروا، وتمكنوا من تأمين شبه الجزيرة دون أي عنف جوهري يذكر، على الرغم من بعض المواجهات المتوترة مع القوات الأوكرانية المصدومة، الذين تلقوا الأوامر بعدم المقاومة في ظل الفوضى السياسية في كييف. القوات الخاصة الروسية أصبحت تعرف باسم (الرجال الخضر قليلًا) أو (الناس المهذبين)، مع النفي الروسي غير المقنع على نحو متزايد بأي تورط. عقدت جلسة عاجلة في البرلمان الإقليمي، وكانت خلف أبواب مغلقة، وانتخبت حكومة جديدة وصرحت- في انتهاك للقانون الأوكراني- أن الاستفتاء سيجري في 25 مايو/أيار لإعطاء القرم مزيدًا من الحكم الذاتي.

حتى أنصار بوتين كانوا مصابين بالدهشة، فقد تصرف بوتين بعد مشاورات منحصرة في دائرة مصغرة من مساعديه، تشمل الأشخاص الذين يثق بهم، الأشخاص الذين كانوا إلى جانبه منذ أن التحقوا جميعًا بالـ(كي جي بي): سيرجي إيفانوف، ونيكولاي باتروشيف، وألكسندر بورتنيكوف. شاطروه عمق أفكاره وشكوكه بطموحات حلف الناتو، وغضبه من إدانة الدول الغربية التي سارعت إلى تبني الحكومة الجديدة التي أُسست بعد انسحاب يانوكوفيتش. كانت هناك أصداء غريبة للقرار الذي اتخذ عام 1979م بغزو أفغانستان، القرار الذي اتخذته أيضًا دائرة منعزلة من القيادة السوفييتية خلف ادعاءات كاذبة. سرية القرار أربكت المؤسسة السياسية في البلاد، وأكدت أن القرار اليوم بات في يد بوتين أكثر من أي وقت مضى.

منذ عودته عام 2012م، ضيَّق بوتين من نشر المعلومات التي تصل إليه؛ فاستبعد الدبلوماسيين، ووزراء الاقتصاد، أو غيرهم من الذين يمكن أن يقدموا النصح عن العواقب المحتملة للأشياء التي تتكشف. أفعال بوتين اليوم تركت المتحدث باسمه، وحتى وزير خارجيته سيرجي لافروف، يكرران الأكاذيب وينفيان وجود أي قوات روسية في القرم، حتى عندما استولت على المواقع الإستراتيجية، واحدًا تلو الآخر. عندما اجتمع مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في جلسة طارئة في نيويورك يوم 27 فبراير/شباط، في اليوم التالي بعد ظهور (الرجال الخضر قليلًا)، كان السفير الروسي، فيتالي تشوركين، غير مستعد لشرح حتى الحقائق الأساسية لما يحدث؛ لأنه- على ما يبدو- لم يكن يعلم بها. وفي اليوم نفسه، عاد يانوكوفيتش إلى الظهور أخيرًا في روسيا، بعد أسبوع من هروبه من كييف، وعقد مؤتمرًا صحفيًّا سوريالِيًّا في مركز للتسوق في روستوف في (دون) جنوب روسيا، ليس بعيدًا عن الحدود الأوكرانية، وادعى فيه أنه لا يزال الرئيس الشرعي لأوكرانيا، في وقت كان فيه المحتجون والصحفيون يمشطون تركته الرئاسية خارج كييف، ويقدمون الأدلة على بذخه الشخصي وفساده المهني. قال يانوكوفيتش إنه يؤيد وحدة أراضي البلاد، ويعارض أي تدخل عسكري من قبل روسيا، وهو أيضًا لا يعلم أن بوتين أطلق حملة عسكرية.

بعد يوم من ظهور يانوكوفيتش، قدم بوتين اقتراحًا للمجلس الاتحادي يسمح باستعمال القوة العسكرية في أوكرانيا، وعلى الفور عقدت رئيسة المجلس، فالنتينا ماتفيينكو، التي استبعدت قبل ثلاثة أيام أي تدخل، جلسة طارئة، يوم السبت، وبحماس لافت وافقت على طلب بوتين. وبعد (نقاشات) ساخنة استنكر فيها الواحد تلو الآخر شر أوكرانيا والولايات المتحدة، صوَّت تسعون عضوًا من الحاضرين من أصل (166) على تفويض بوتين بغزو جارتهم، بعد أن غزاها. إلا أنه بعد ذلك، وفي 2 مارس/آذار، استدعى بوتين يانوكوفيتش إلى مقر إقامته خارج موسكو، وأجبره على صياغة رسالة وتوقيعها، مؤرخة في يوم سابق، أي قبل تصويت المجلس الاتحادي على التفويض، يطلب فيها من روسيا التدخل. جاء في الرسالة: «أوكرانيا على شفا حرب أهلية، البلاد في حالة من الفوضى»، وقد مزجت الرسالة الحقيقة الساطعة بجنون العظمة المغروسة في المستشارين المقربين من بوتين. وجاء فيها أيضًا: «بتأثير الدول الغربية هناك أعمال عنف وإرهاب مفتوحة، والناس مضطهدون هناك لأسباب سياسية ولغوية. وأود في هذا الصدد أن أطلب من الرئيس بوتين، رئيس جمهورية روسيا الاتحادية، أن يستخدم القوة العسكرية للاتحاد الروسي لتوطيد الشرعية والسلام والقانون والنظام والاستقرار، والدفاع عن الشعب في أوكرانيا»[5].

في اليوم الذي أُجبر فيه يانوكوفيتش على التوقيع على الرسالة، عقد بوتين سلسلة من المكالمات الهاتفية مع زعماء العالم الذين توتروا يريدون أن يفهموا بالضبط ماذا يحدث، وكان الأكثر أهمية مكالمة مع أنجيلا ميركل. قبل يومين فقط، كان قد أخبرها أنه لا توجد قوات روسية في شبه جزيرة القرم، لكن يقر اليوم بوجود مثل هذه القوات، الشيء الذي لا يمكن أي مسؤول روسي أن يصرح به علنًا باستثناء بوتين، الذي أعلنه في أبريل/نيسان، بعد ستة أسابيع من الحقيقة[6].

كرر بوتين تحذيره من أن الروس في أوكرانيا يواجهون العنف هناك، وهو ما اضطره إلى التصرف، وتحولت ميركل- الزعيم الذي لا يزال أفضل المحاورين لبوتين في القارة- اليوم بشدة ضده، فهاتفت بعد ذلك باراك أوباما حتى في الوقت الذي كان يهاتف فيه بوتين،

وعندما تحدثا، خرجت عن نهجها الحذر من الأزمة، واتخذت موقفًا أكثر صرامة بكثير. الولايات المتحدة حذرت، وسرعان ما تبعها الاتحاد الأوروبي وغيره من مجموعة الدول الثمان G8 الأعضاء، بأن روسيا تواجه احتمال فرض عقوبات عليها، وتخاطر بمكانتها الدولية إذا كانت لها مطامع إقليمية في شبه جزيرة القرم.

إستراتيجية بوتين في هذه المرحلة تكشفت عشوائيًّا، حتى بالنسبة إلى مرؤوسيه؛ فكان يتخذ القرارات منفردًا وارتجالًا، وبعد أن حضر المناورات العسكرية المبكرة في كيريل لوفسكي شمالي موسكو، عاد إلى موسكو يوم 4 مارس/آذار، وتحدث لأول مرة علنًا عن الأزمة التي تعصف بأوكرانيا- والعالم- خلال الأسبوعين السابقين. التقى مع مجموعة صغيرة من الصحفيين من تجمع الكرملين في نوفو أوجاريوفو، وخلافًا للمؤتمرات الصحفية السنوية المنظمة بعناية، نظم هذا على عجل، فكان إعداده سيئًا، وبدا الخلط في إجاباته، وفي بعض الأحيان كانت مشوشة، وبدا غير مرتاح، فقد كان يتراخى أحيانًا ويتلوى أحيانًا أخرى على مقعده؛ فبعد أن أعلن أن يانوكوفيتش هو الرئيس الشرعي الوحيد في أوكرانيا، عاد ليقول إنه لا يوجد زعيم شرعي في أوكرانيا يمكن التحدث معه. («أعتقد أنه ليس له مستقبل سياسي»، وأضاف فيما يتعلق بيانوكوفيتش: «عليه أن يتنازل، وقد أخبرته بذلك»)؛ والتغيير في السلطة في أوكرانيا «ضروري ربما»، لكن ما حدث في كييف كان «استيلاء مسلحًا على السلطة»، كما «الجني؛ ما إن تهيأت له الفرصة حتى خرج من القمقم»، وغمرت العاصمة بالقوميين، ومرتدي الصليب المعقوف «أشباه الفاشيين»، والمعادين للسامية، ثم أضاف: «ليس لدينا أعداء في أوكرانيا».

أثار مرة أخرى مسألة حروب أمريكا في أفغانستان والعراق وليبيا، التي كانت حاضرة جدًّا في ذهنه في هذه الأزمة. كان رد فعل أوباما في الواقع بطيئًا على الأحداث في أوكرانيا، إذ كان منصرفًا إلى الأزمات في الشرق الأوسط، ولكن بوتين مقتنع أن الأمريكيين حرضوا على الاضطرابات أكثر من الأوروبيين؛ «في بعض الأحيان أشعر أنهم في مكان ما، وفي ذلك

المستنقع الضخم في أمريكا، يجلس الناس في المختبر ويجرون التجارب، كما لو أنهم يجرونها على الفئران، دون أن يفهموا الواقع وعواقب ما يفعلون».

اعترف- على نحو غير مباشر- أن روسيا عززت قواتها في مقار أسطول البحر الأسود في سيفاستوبول، ولكن عندما ضُغط عليه بأن الجنود ذوي اللباس العسكري الروسي- مع أنهم لا يضعون الشارات العسكرية- هم من يحتلون مباني رئيسة، زعم أنهم «وحدات الحماية الذاتية المحلية»، وأضاف: «يمكنك الذهاب إلى المتجر وشراء أي نوع من الزي الرسمي».

أعرب بوتين عن دعمه لحق الشعوب في شبه جزيرة القرم بإجراء استفتاء، لكنه شدد على أنه لم يدرس إمكانية انضمام القرم لروسيا، وفي وقت لاحق بعد يومين، مع تنامي المعارضة الدولية، أعلن برلمان القرم الجديد فجأة أنه قد سارع خططه، وسيجري الاستفتاء على مصير شبه الجزيرة خلال عشرة أيام، في 16 مارس/آذار. وعلى الرغم من معارضة ذوي الأصول الأوكرانية، وتتار القرم، الذين قمعوا ذات مرة بفظاعة في عهد ستالين، ولم يسمح لهم بالظهور ثانية إلا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، كانت نتائج الاستفتاء اليوم مجرد إجراء شكلي. في اليوم التالي- على الرغم من إنكار بوتين قبل أيام فقط- أوضح الكرملين بشدة أن شبه جزيرة القرم عادت إلى الوطن الأم، عندما التقى قادة مجلس الدوما والمجلس الاتحادي بوفد من شبه جزيرة القرم، وخرجت مظاهرة حاشدة في الساحة الحمراء رفرفت فيها الأعلام الروسية واللافتات، وحمل عدد من اللافتات عبارات تقول: «القرم أراض روسية». كانت الشعارات- مثل البعثة الجديدة لفلاديمير بوتين- مكثفة وأقرب إلى تعاويذ تبعث على الفخر والغضب في وقت واحد، وكانت رد بوتين على ما عدَّه سنوات من تصاعد عدم الاحترام لروسيا. سوف تصبح صرخة بصدى عميق مستهجن، مع أن بوتين كان مجبرًا عليها من جرَّاء تسلسل الأحداث غير المتوقعة، ولم يتوقع لها أن تحدد شرعيته وشرعية روسيا لسنوات قادمة: **القرم لنا!**

في 18 مارس/آذار، بعد يومين من الاستفتاء الذي أقيم تحت حراب الرشاشات الروسية، واستُنكر على نطاق واسع لأنه كان مهزلة، ظهر بوتين في قصر الكرملين الكبير أمام النخبة السياسية في البلاد- النخبة التي تقف علنًا خلفه- وأعلن أن شبه جزيرة القرم، وبصورة منفردة سيفاستوبول، أجزاء جديدة للاتحاد الروسي. وأضاف مستحضرًا المكان الأسطوري الذي تعمَّد فيه الأمير فلاديمير، وبذلك تنجب روسيا نفسها: «كل شيء في شبه جزيرة القرم يتحدث عن فخرنا وتاريخنا المشترك»، واستحضر المعارك من بالاكلافا إلى سيفاستوبول، التي ترمز إلى «المجد العسكري الروسي وبسالته المميزة». صفق الجمهور وهتف مقاطعًا كلمته مرارًا، وبعضهم انهمرت الدموع من عيونهم.

ظهر بوتين في وقت لاحق من ذلك المساء في مسيرة وحفل موسيقي في الساحة الحمراء، نظم ليكون احتفالًا وطنيًّا يستحق أن يصبح عطلة مقدسة، وقال للحشد النابض: «بعد رحلة طويلة وصعبة وشاقة في البحر، تعود شبه جزيرة القرم وسيفاستوبول إلى ميناء وطنهم، إلى الشواطئ الأم، إلى ميناء الوطن، إلى روسيا!». ومن بين الأغاني التي صدحت في تلك الليلة أغنية عاطفية سوفييتية تسمى: (فالس سيفاستوبول)، وقد كتبت بعد الحرب الوطنية العظمى في عام 1953م، أي بعد سنة من ميلاد بوتين، ومعظم الروس من سن معينة ومزاج معين يمكن أن يغنوها بكاملها:

عدنا إلى الوطن
على حافة الأرض السوفييتية
مرة أخرى، كما كان من قبل، تزهر الكستنا
ومرة أخرى، كنت في انتظاركم...
على طول الجادات سوف نتمشى
وكما كنا في الشباب، سوف نغني.

كانت آخرُ دولة تضم أراضي دولة أخرى هي العراق عام 1990م، عندما اجتاحت جيوش صدام حسين الكويت، وقد دفع حينها الغزو العراقي، وضم الكويت للعراق، إلى إدانة عالمية،

وفي نهاية المطاف إلى تأسيس تحالف عسكري بقيادة أمريكية وبرعاية الأمم المتحدة، ومن غير أي اعتراض من الاتحاد السوفييتي، فطَرَد العراقيين من الكويت في وقت لاحق، بعد سبعة أشهر فقط، وقد فهم بوتين ذلك، وكان يعلم الأخطار التي أقدم عليها باستيلائه على أراض أجنبية. حتى عام 2008م عندما اقتحمت روسيا جورجيا وأوسيتيا الجنوبية وأبخازيا كانت أراضي متنازعًا عليها، وكانت فيها قوات حفظ السلام الروسية، ويهاجمها الجيش الجورجي. كانت شبه جزيرة القرم جزءًا لا جدال فيه من أوكرانيا، ومع ذلك لم يواجه بأي تهديد عسكري أو أمني. بوتين، في غضون أيام، لم ينتهك فقط سيادة دولة مجاورة، بل وقلب ما افترضه كثيرون بأنه نظام غير قابل للتغيير لمرحلة ما بعد الحرب الباردة؛ أجل الحرب الباردة التي ترسخت بعد التفكك العنيف ليوغوسلافيا في التسعينيات، الحرب التي أمل كثيرون في أوروبا أن تؤذن ببداية عهد جديد من التعاون والتكامل السلمي بعد أعمال العنف الدامية التي شهدها القرن العشرون، وكان بوتين نفسه دعا مرارًا وتكرارًا إليه، واستنكر استخدام القوة بصورة منفردة من قبل الولايات المتحدة وحلفائها بوصف ذلك تهديدًا للنظام الدولي الذي يحمي حقوق الدول ذات السيادة من الهجوم. وقد أدلى بهذه الحجة قبل أشهر فقط من دراسة باراك أوباما لتوجيه ضربة عسكرية ضد سوريا لاستخدامها الأسلحة الكيميائية.

بوتين يفهم ما سيكون عليه رد الفعل على الضم، لكنه يحسب أيضًا أن العالم لن يجرؤ على التحرك كما تحرك ضد صدام حسين في عام 1990م؛ فالعراق كان دولة ضعيفة، أما روسيا فدولة نامية عظمى، والغرب لن يعمل ضد روسيا- بالتأكيد ليس نيابة عن أوكرانيا- تمامًا كما لم يتصرف في عام 2008م للحفاظ على وحدة أراضي جورجيا. روسيا لم تعد الاتحاد السوفييتي الواهن الذي يُشفق عليه، وكان بوتين مستعدًّا للعمل فيما يعده وحده المصلحة الوطنية للبلاد. استولى على شبه جزيرة القرم من أوكرانيا لأنه يعتقد أنه قوة عظمى لديها السلطة القانونية والأخلاقية لفعل ذلك، كما كانت الولايات المتحدة تفعل مرارًا منذ نهاية الحرب الباردة.

العملية التي أمر بها بوتين في شبه جزيرة القرم عكست الدروس المستفادة التي تعلمها الجيش من الحرب في جورجيا، وكذلك الفوائد من التحديث العسكري الذي أشرف عليه منذ كان رئيسًا للوزراء؛ فقد تضاعفت الميزانية العسكرية الروسية تقريبًا منذ عام 2005م، لتصل إلى ما يقدر بـ 84 مليار دولار في عام 2014م، ولم تتقدم عليها إلا الولايات المتحدة والصين، لكنها كانت من حيث النسبة المئوية من الناتج المحلي الإجمالي أكثر إنفاقًا من أي اقتصاد كبير[7]. لم تظهر آثار التحديث في الأسلحة الجديدة، ومن بينها السفن والطائرات المقاتلة التي أصبحت تتحدى على نحو متزايد الأسلحة الأمريكية والدفاعات الجوية للناتو، فحسب؛ ولكن أيضًا في التدريب، وتجهيز قواتها، ومعظمها من النخبة، مثل تلك التي أمر بتوجيهها إلى أوكرانيا.

أظهر الاستيلاءُ على شبه جزيرة القرم أن روسيا لديها قدرة أكثر من غيرها من الدول المجاورة لها في أوروبا، وتمتلك آلة عسكرية جبارة لا تحمد عقباها، وهي الأكثر قوة منذ تفكك الجيش الأحمر. مزجت القوة الصلبة في القوة الناعمة، والسرعة والتخفي، والتشويش والدعاية الضخمة التي ترمي إلى إظهار أن تلك القدرات لا يمكن التعامل معها بسرعة في حال أُطلقت.

في الوقت الذي أقرَّ فيه بوتين أن القوات الروسية سيطرت على كامل شبه الجزيرة قبل الاستفتاء على وضعها، كان الضم قد أصبح أمرًا واقعًا، وعلى الرغم من الاحتجاج الدولي فإنه ليس هناك ما يشير إلى قلب الطاولة.

سارع بوتين إلى تسويغ الضم، وردد الحجج التي وجدت صداها في المؤسسات الدبلوماسية والعسكرية، ومن ثم في وسائل الإعلام التي يسيطر عليها الكرملين، وقال إن شبه جزيرة القرم كانت ذات يوم جزءًا من الإمبراطورية الروسية التاريخية، وإنها كانت تدار في زمن الاتحاد السوفييتي من موسكو حتى تركها نيكيتا خروتشوف لجمهورية أوكرانيا الاشتراكية في عام 1954م، فلا تزال مرسى لأسطول البحر الأسود في روسيا الجديدة،

والحكومة الجديدة في أوكرانيا غير شرعية، وشعب شبه جزيرة القرم صوتوا تأييدًا للاستقلال عن أوكرانيا، وهم يواجهون خطرًا وشيكًا من الفاشيين الطامعين. وأحيانًا كان يلجأ إلى تأكيد معادلة أخلاقية بأن الولايات المتحدة غزت بلدانًا أخرى فلماذا لا يمكن أن تفعل روسيا ذلك؟ كان المسوِّغ الأكثر شؤمًا لدى كثيرين أنه تدخل لحماية (أبنائنا) الروس في شبه جزيرة القرم؛ وبهذا فهم ليسوا مواطني روسيا، لكنهم روس- كما أشار في كثير من الأحيان- وجدوا أنفسهم كرهًا في (دول أجنبية)، عندما انشقت هذه الدول عن الاتحاد السوفييتي في عام 1991م.

لسنوات مجَّد الوطن الروسي؛ ذلك المجتمع الذي اتحد متجاوزًا الحدود من خلال اللغة والثقافة والإيمان، لكن لم يسبق له قط أن استخدم فكرة لتكون مسوغًا لعمل عسكري. كانت حجة لها متوازيات غير مريحة مع تلك التي استخدمها أدولف هتلر في عام 1938م للمطالبة بالنمسا، وطالب في وقت لاحق بمقاطعة السوديت في تشيكوسلوفاكيا من أجل المجتمع الشعبي (فولكسجينوسين). والسؤال المطروح اليوم: أين تقف سياسة بوتين؟ هناك أجزاء مهمة أخرى من أوكرانيا يقطنها سكان روس من أصل روسي، وبالمثل في كازاخستان وجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة الثلاث التي هي اليوم في حلف شمال الأطلسي ويحميها وفق معاهدة الدفاع المشترك المنصوص عليه في المادة 5 من ميثاق الحلف: ليتوانيا، ولاتفيا، وأستونيا.

قليلون من يعتقدون أن بوتين يستطيع أن يخاطر بمواجهة عسكرية مع حلف الناتو من خلال مهاجمة إحدى الدول الأعضاء، لكن لا أحد على ما يبدو متأكد أن حسابات بوتين ستكون منطقية تمامًا بعد اليوم.

في غضون أيام من ضم شبه جزيرة القرم، بدأ المحتجون في شرقي أوكرانيا- الذين حُرِّضوا أو انضم إليهم وكلاء المخابرات الروسية والمقاتلون المتطوعون- بالاستيلاء على المباني الإدارية في عدة مدن، وفي عاصمتين إقليميتين؛ هما دونيتسك ولوهانسك، نددوا

بالسلطات المركزية الجديدة في كييف، وأعلنوا إنشاء (جمهوريات شعبية)، مُحددين استفتاءاتهم الخاصة في شهر مايو/أيار. لم تتكشف الأحداث إلا عندما حذر مسؤولون في المناطق بما سيفعلونه بعد الاضطرابات السياسية التي وقعت في عام 2004م، بدعم من المواطنين عبر الحدود في روسيا. تشمل كلتا المنطقتين أعدادًا كبيرة من المواطنين ذوي الأصول الروسية، على الرغم من أنهم ليسوا الأغلبية المطلقة، الذين كانوا في تعاطفهم السياسي أقرب إلى روسيا بوتين منهم إلى كييف، خاصة بعد الاضطرابات في شتاء 2013– 2014م. وكانوا أكثر عرضة لدعاية الكرملين التي تسيطر على وسائل الإعلام، والتي كانت متاحة على نطاق واسع في شرقي أوكرانيا، والتي صورت أولئك الذين هم اليوم في السلطة على أنهم قوميون مسعورون ينكرون الحقوق الأساسية للروس، ويقمعونهم، بل ويعذبونهم ويقتلونهم.

ومع أنه لم يصل إلى حد التعبير عن الدعم الصريح للاحتجاجات، فقد ندد بوتين مرارًا بالسلطات الأوكرانية، وأعاد الحق لروسيا في حماية مصالح العالم الروسي، وخلال أسابيع استخدم مصطلح نوفوروسيا (روسيا الجديدة)، لاستحضار الحق التاريخي لروسيا في جزء من الأراضي الأوكرانية ممتد من أوديسا إلى الحدود الروسية التي استولت عليها الإمبراطورية الروسية في القرن الثامن عشر من الإمبراطورية العثمانية المتداعية. خطوط التصدع العرقي التي هزت أوكرانيا كما هزت دولًا أخرى نتيجة التفكك الفوضوي للاتحاد السوفييتي تتمزق اليوم، وربما إلى غير رجعة.

الأمريكيون والأوروبيون أصابتهم الدهشة من هذا التحرك في شبه جزيرة القرم، كما دهشوا من قبل من جرَّاء سفك الدماء في كييف، ومن الرحيل المفاجئ ليانوكوفيتش في فبراير/شباط[8]، وكان رد الفعل الدولي الأولي لقرار الضم– والاضطرابات في شرقي أوكرانيا– مرتبكًا ومضطربًا من مكائد بوتين، ومن السهولة المذهلة التي استولت فيها آلاف القوات الخاصة الروسية على أكثر من عشرة آلاف ميل مربع من الأراضي التي يسكنها نحو مليوني شخص. في الأيام التي سبقت الاستفتاء في شبه جزيرة القرم، اعتقدت الولايات

المتحدة والقادة الأوروبيون أن الضغط الدبلوماسي يثمر، وعندما جرى الاستفتاء، حسبوا أن التلويح بالعقوبات الاقتصادية- والتوبيخ الدولي- سيكون رادعًا بما يكفي.

في 17 مارس/آذار، بعد يوم من الاستفتاء، فرضت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي عقوبات على ما يقرب من عشرة مسؤولين في روسيا وفي شبه جزيرة القرم، ولكنها شملت فقط أمثال فالنتينا ماتفينكو من المجلس الاتحادي، والإستراتيجي السياسي في الكرملين فلاديسلاف سوركوف، الذي، على الرغم من كونه شخصية بارزة، ليس له أي تأثير في القرارات التي يتخذها بوتين اليوم، وهذا ما دفع بوتين ألا يصغي إلى الردود الأولية؛ فلم يتجاهل فقط التحذيرات القوية والمتزايدة من باراك أوباما، الذي تدهورت العلاقة به بعد حظر التبني، وإدوارد سنودن، وسوريا، وإنما تجاهل أيضًا تحذيرات من قادة أمثال أنجيلا ميركل، التي ظلت نظيرته في القارة التي يُعهد إليها بالحفاظ على علاقات وثيقة مع روسيا. وكان متوترًا في حديثه مع ميركل، فقد استنكر الإجراءات الأوروبية الشنيعة ضد روسيا، وأنها وثقت بأوباما لاعتقادها بأن بوتين يعيش اليوم (في عالم آخر)[9].

تعنت بوتين ثبت أنه توحيدي إذ حشد المعارضة الدولية ضده؛ فقد طردت روسيا من مجموعة الثمان التي كان من المقرر أن تعقد قمتها السنوية في صيف عام 2014م في سوتشي التي بنيت حديثًا، وبعد يومين من الضم كثفت الولايات المتحدة من العقوبات، تلاها الاتحاد الأوروبي؛ ولكن هذه المرة استهدفت العقوبات المقربين من بوتين؛ بقصد تغيير سلوكه من خلال معاقبة أصدقائه الذين جمعوا ثرواتهم خلال رئاسته، وكان من بينهم شركاؤه القدامى في الجودو؛ أركادي وبوريس روتنبرغ، وفلاديمير ياكونين، ويوري كوفالتشوك، وأندريه فورسينكو من جمعية أوزيرو، وجينادي تيمتشينكو. وبدأت تطفو على السطح ادعاءات نقاد بوتين منذ سنوات، وأكدت وزارة الخزانة في واشنطن أن بوتين نفسه كان له استثمارات في شركة تيمتشينكو، وغونفور و«ربما عنده إمكانية الدخول إلى أموال غونفور». واتهم الأمريكيون مصرف كوفالتشوك (روسيا) بأنه (المصرف الشخصي) لكبار المسؤولين في الكرملين، ومن بينهم بوتين[10]. منعت العقوبات المستهدفين من السفر إلى الولايات

المتحدة، وجمدت أصولهم، ومنعت الشركات الأمريكية من التعامل معهم، وقيدت أنشطتهم التي تعتمد على الدولار بصورة فعالة في أي مكان تقريبًا.

ستستمر العقوبات الأمريكية والأوروبية في التوسع، وتستفرد بمزيد من المسؤولين والشركات، ومن بينها مصرف روتينبيرغز، وإس. إم. بي. الاختصار الروسي لمصرف طريق بحر الشمال الذي يغطي القطب الشمالي، وقطاعات كاملة من الاقتصاد، ومن ضمنها روزنفت وخططها الطموحة لاستخراج النفط من منطقة القطب الشمالي.

مع ذلك لم يكن لهذه العقوبات الجديدة تأثير واضح أكثر من تلك التي فرضت على مساعدي بوتين الذين يدورون في فلك سلطته الخارجية، وفي الواقع ليس هناك تأثير ملموس، وكأنما لا توجد عقوبات على الإطلاق؛ فعزيمة بوتين لا يمكن تحديها حتى من أقرب الناس إليه؛ فكل أولئك الذين فرضت عليهم العقوبات- من مسؤولين كبار أو صغار، والأصدقاء المقربين أو المعارف، ووكلاء النفوذ أو الشماعات- مدينون له جميعهم بمواقعهم في النظام، إذ كانوا النخبة الجديدة لعهد بوتين، وهم جميعًا فوق القانون، وتحميهم عدالة رجل واحد، واعتمدت سلطتهم وثرواتهم على سلطته وولائهم له. قال فلاديمير ياكونين، الذي رأى في العقوبات إهانة شخصية له، إن صديقه القديم لا يفسح مجالًا لأي شخص أن يحاول ثنيه عن أي قرار يتخذه في ما يعده مصلحة عليا لروسيا، بل ويعد أي جهد من هذا النوع عملًا من أعمال الخيانة؛ قال ياكونين: «لن ينسى ذلك أو يغفره لأحد»[11]، ومن ثم فلم يتجرأ على المعارضة أحد من هؤلاء الذين يواجهون العقوبات، بل أعربوا- الواحد تلو الآخر- عن ولائهم وتضامنهم مع الزعيم، معلنين استعدادهم لتقديم أي تضحية ضرورية في تلك المواجهة. قال جينادي تيمتشينكو: «عليك أن تدفع ثمنًا لكل شيء في هذه الحياة»، وهو أقلهم ثراء، حيث تمكن من بيع أسهمه في غونفور لشريكه قبل يوم من إعلان العقوبات، مشيرًا إلى أن لديه معلومات من الداخل بتهديد يلوح في الأفق، فتحرك بسرعة لحماية أصوله من الحجز. اعترف تيمتشينكو أن طائرته غلف ستريم جاثمة على الأرض لأنه لم يعد قادرًا على شراء قطع غيار لها، وأن بطاقات الائتمان لزوجته أصبحت معلقة، وأنه لم يعد قادرًا على

قضاء عطلته في أوروبا مع أسرته وكلبه رومي، سليل كوني التي يحبها بوتين. وأضاف: «لكن بإمكان المرء أن يطرح جانبًا أعباء الأعمال والمضايقات الشخصية عندما تكون مصالح الدولة على المحك، فهذه تبدو تفاهات على خلفية المشكلات العالمية»[12].

الاحتجاجات كتلك التي تجسدت في سيمفيروبول وغيرها من مدن شبه جزيرة القرم انتشرت في فبراير/شباط من خلال أوكرانيا، وفي أوديسا وقعت مواجهة عنيفة في مايو/أيار بين المحتجين المؤيدين للروس ومؤيدي الحكومة في وسط المدينة، انتهت بحريق في البيت القديم لنقابات العمال، أسفر عن مقتل ثمانية وأربعين شخصًا. الاستفتاءات التي أجريت في ذلك الشهر في جمهورتي دونيتسك ولوهانسك نظمت على عجل، وباتت مشكوكًا فيها من الناحية القانونية كتلك التي جرت في شبه جزيرة القرم، وأعلن جهاز الأمن الأوكراني أنه استولى على تسجيل لأحد زعماء التمرد، ديمتري بويتسوف، من الجيش الأرثوذكسي الروسي، يشكو فيه أنه لا يستطيع الإشراف على التصويت لوجود قوة كبيرة من القوات الأوكرانية، ووجود أسلحة في المنطقة، وأنه «لا يمكن أن نفعل ذلك بصورة قانونية ما دام هؤلاء الزناة موجودين هنا». وكان رجل على الطرف الآخر من الخط يدعى ألكسندر باركاشوف، وهو من النازيين الجدد، ذوي السمعة السيئة في روسيا، الذين انضموا في عام 1993م للمدافعين عن البيت الأبيض في موسكو في تحدٍّ لمراسيم بوريس يلتسين، وطلب منه أن يمضي قدمًا ويجعل النتيجة- لنقل مثلًا- 89 في المئة، فصرخ باركاشوف في وجهه: «هل تنوي جمع الأوراق؟ هل أنت مجنون داعر؟»[13].

بعد فرز الأصوات جاءت النتيجة بحسب ما أوصى تمامًا؛ 89 في المئة، في حين تجاوز رصيده في لوهانسك 96 في المئة. وأعقب الاستفتاءات تصاعد أعمال العنف وصدامات، وانحدرت البلاد إلى حرب مفتوحة، كان الرئيس العام لهيئة الأركان الروسية، فاليري غيراسيموف، يتوقع ذلك على ما يبدو في العام قبل الماضي، عندما صاغ عقيدة عسكرية جديدة بعد عودة بوتين إلى الرئاسة، في رد فعل على الانتفاضات في العالم العربي. كتب الجنرال غيراسيموف[14]: «في القرن الحادي والعشرين شهدنا اتجاهًا نحو ضبابية الخطوط

الفاصلة بين حالتي الحرب والسلام؛ فلم تعد تعلن الحرب، فما إن تبدأ حتى تمضي وفقًا لقالب غير مألوف. تجربة النزاعات المسلحة ومن ضمنها تلك المرتبطة بالثورات الملونة في شمال أفريقيا والشرق الأوسط تؤكد أن دولة مزدهرة تمامًا يمكن في غضون أشهر، وحتى أيام، أن تتحول إلى ساحة شرسة للنزاعات المسلحة، فتصبح ضحية للتدخل الأجنبي، وتغرق في شبكة من الفوضى، وكارثة إنسانية، وحرب أهلية»، وهذا ما حدث.

وقد ثبت أن ضم شبه جزيرة القرم لم يكن مجديًا، لكنَّ تحول الوضع في شرقي أوكرانيا إلى مزيد من التعقيد، والشكوك بنيَّة بوتين، شوش جهود المتمردين. وقد عمد الرئيس المنتخب حديثًا- الذي حلَّ محل المنفي طواعية يانوكوفيتش، بيترو بوروشينكو، تاجر الشوكولاته- بإصرار على التمسك بالمناطق المتمردة في شرقي البلاد أكثر مما استطاعته الحكومة المؤقتة في قضية شبه جزيرة القرم في مارس/آذار. وأردف الجيش الأوكراني بالميليشيات غير النظامية التي أُسست في أثناء الأحداث في الميدان، وشن هجومًا مضادًّا، وتحرك لاستعادة السيطرة على الأراضي التي لم تعد تسيطر عليها الحكومة، ومع كل يوم يمر يتحول القتال إلى حرب أهلية.

ابتعد بوتين- رسميًّا على الأقل- كثيرًا عن هؤلاء المطالبين بالاستقلال في دونيتسك ولوهانسك، ومع تشديد العقوبات أكثر ربما مما كان يتوقع، طالب بتأجيل التصويت على الاستقلال. أعرب الأمريكيون والأوروبيون عن أملهم بأن تجدي العزلة الدبلوماسية لروسيا، وتشديد العقوبات عليها، في تغيير الخيارات أمام بوتين، وقد أجبرته حقًّا هو وغيره من المسؤولين على النفي بشدة تورط روسيا.

كان المتمردون مع ذلك يحظون بتأييد واسع من روسيا، سواء بصورة رسميَّة أو غير رسمية، وكان قادتهم في البداية من أصول روسية، ومن ضمنهم ضباط سابقون أو ربما ضباط عاملون في الاستخبارات العسكرية، مثل إيجور غيركن، الذي استخدم اسمًا حركيًّا إيجور ستريلكوف. الميليشيات التي أسست- التي لم يكن لكثير منها قيادات واضحة- ضمت

مقاتلين محليين و(متطوعين) من روسيا الذين أصر الكرملين، على نحو غير مقنع، على ضمهم إلى الانتفاضات لمجرد رغبة أخوية منهم للدفاع عن الوطن الروسي. قاتل بعضهم في صراعات سابقة على هامش انهيار الإمبراطورية السوفييتية في التسعينيات في وقت مبكر، مثل أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية في جورجيا، وقطعة من الأرض في مولدوفا، معروفة باسم ترانسنيستريا. وقد عزز وجودهم القوات الخاصة الروسية وضباط المخابرات والقوات النظامية لاحقًا، أُرسلوا بصفتهم (متطوعين) من قبل قادتهم مع وعد بزيادة رواتبهم، وطلب منهم الاستقالة من الجيش وعدم ارتداء أي شارات روسية بناء على أوامر الكرملين. لم يرغب بوتين أن يخاطر بتدخل روسي مفتوح، وأخفى التشويش حجم النشاط الروسي الذي يكفي لإثارة البلبلة، وتسبب- كما تمنى- بانقسام وجدل داخل أوروبا حول كيفية الرد بقوة. وكما توقع غيراسيموف فقد خلطت الصراعات في شرقي أوكرانيا الخطوط الفاصلة بين الحرب والسلام، وبين المحرض والمدافع.

واصل الكرملين إنكار وجود المقاتلين الروس والأسلحة في أوكرانيا مدة طويلة حتى مع عودة الجثث الأولى للجنود الروس، التي دفنت بسرية كما دفنت جثث الذين ماتوا دفاعًا عن الاتحاد السوفييتي في أفغانستان، واستمر ذلك حتى بعد أن قبض على جنود روس داخل أوكرانيا وطافت بهم السلطات هناك.

يوم 6 يونيو/حزيران سافر بوتين إلى فرنسا لحضور مراسم إحياء الذكرى السبعين لنزول الحلفاء في النورماندي في يوم D، وكان واضحًا أنه منبوذ. وكانت دول مجموعة السبع- بعد أن طردت روسيا- اجتمعت هذا الأسبوع في بروكسل بدلًا من سوتشي، وقد شُمِل بوتين في المراسم التذكارية تحية لمساهمة الاتحاد السوفييتي في هزيمة النازيين، لكن تدخل روسيا في حرب جديدة لطخ حتى تلك المجاملة، فقد أصيب القادة الأوروبيون بمزيد من الإحباط مع نفي بوتين لذنبه، وإصراره على أن الحل الممكن لم يكن إلا بقرار سياسي، بالمقابل كان محبطًا أيضًا من الجهود الأوكرانية لاستعادة السيطرة على المناطق في الشرق. اختبرت أنجيلا ميركل وفرانسوا هولاند رغبته المعلنة للتوصل إلى حل سياسي سلمي

في أوكرانيا من خلال التوسط بمحادثات سلام. وللمرة الأولى منذ أن بدأت الأزمة، التقى بيترو بوروشينكو في نورماندي، بصفته وكيلًا لمناطق المتمردين الذين تنصل من تقديم أي دعم لهم في القتال، ومع ذلك، اشتدت المواجهات بين القوات الحكومية والمتمردين بالأسلحة الثقيلة، ومن ضمنها قذائف الهاون والمدفعية.

بعد شهر، التقى بوتين مرة أخرى بميركل في البرازيل قبيل نهائي كأس العالم بين ألمانيا والأرجنتين، وحضر بصفته زعيم الدولة المضيفة لبطولة عام 2018م، الحدث الكبير المرتقب الذي أطلق من أجله مشروع بناء ملعب ضخم جديد، المشروع الذي كان عرضة لتساؤلات تتعلق بمخالفات تحيط بالعرض الفائز لروسيا[15]. حتى عندما التقيا مرة أخرى للتفاوض ثانية لإعادة وقف إطلاق النار، كانت هناك تقارير جديدة تتحدث عن معدات روسية تعبر الحدود، وبعد يوم واحد أسقطت طائرة شحن عسكرية أوكرانية AN - 26 من ارتفاع أكثر من عشرين ألف قدم على الحدود الروسية بالقرب من لوهانسك، وجاء إسقاطها بعد تدمير طائرة نقل عسكرية أخرى في أثناء هبوطها في يونيو/حزيران، فكان مؤشرًا على زيادة القوة النارية للمتمردين، وبعد يومين انفجرت طائرة مقاتلة سوخوي بصاروخ متطور أرض جو من النوع الذي لم يكن من المعروف أن المقاتلين غير النظاميين يمتلكونه.

بعد ظهر يوم 17 يوليو/تموز نشر الموقع الإلكتروني الذي يستخدمه إيجور ستريلكوف مذكرة يعلن فيها إسقاط طائرة AN- 26 أخرى، هذه المرة بالقرب من قرية تورز، وتقع بين دونيتسك والحدود الروسية، وقال البيان المنسوب إلى ستريلكوف، بلهجة المنتصرين: «لقد حذرناهم ألا تحلق طائراتهم (في سمائنا)»[16]. الأوكرانيون ادعوا لاحقًا أن المكالمات الهاتفية الملتقطة بين مقاتل وضابط مخابرات روسي تؤكد إسقاط الطائرة. لم تكن طائرة عسكرية أوكرانية، على الرغم من أن حطام الطائرة التي أسقطت ينتمي إلى طراز بوينغ 777 وعلى متنها 283 راكبًا و15 من أفراد طاقم الخطوط الجوية الماليزية للرحلة رقم 17 من أمستردام إلى كوالا لمبور، وقد سقطت أجسادهم وسط الحطام على عدة أميال مربعة من الأراضي الزراعية، المزروعة بالقمح.

بكل المقاييس، إلا بالمقياس الروسي، فإن صاروخ أرض جو من بطارية محمولة معروفة باسم 9K37 بوك، هو ما أسقط الطائرة وهي تحلق فوق منطقة دونيتسك. والشهود، ومن بينهم صحفيون من وكالة أسوشيتد برس، شاهدوا البطارية تتحرك في القرى المجاورة، في حين تتبعت تقارير لاحقة وحدة تابعة للجيش الروسي، وبخاصة لواء الصواريخ الثالث والخمسين المضاد للطائرات الذي يتخذ من مدينة كورسك مقرًّا له، وقيل إن الوحدة عبرت الحدود من روسيا في الليلة قبل الماضية وعادت مرة أخرى وعلى متنها ثلاثة فقط من صواريخها الأربعة. وخلص التحقيق الأولي من قبل حكومة هولندا أيضًا إلى أن الطائرة انفجرت في الجو، والأضرار التي لحقت بخزان الوقود تناسب انفجار صاروخ مثل بوك، لا صاروخ من طائرة مقاتلة، وهذا ما أكدته على الفور وزارة الدفاع الروسية[17].

بوتين، الذي كان عائدًا من رحلته إلى البرازيل، تحدث هاتفيًّا مع ميركل وأوباما في ذلك اليوم عندما وقعت المأساة، لكنه أدلى بتصريح مقتضب، ولم يقل شيئًا عن المصدر الواضح للصاروخ؛ فلم يؤكد التورط الروسي ولم ينفه، لكنه وجَّه اللوم في هذه المأساة إلى استئناف القتال في شرقي أوكرانيا، ليشير إلى خطأ الحكومة الأوكرانية في محاولتها استعادة أراضٍ يديرها متمردون مسلحون، وقال في كلمة تلفازية استثنائية، سُلِّمت في الساعات الأولى من صباح يوم 21 يوليو/تموز: «لا ينبغي لأحد، وليس لأحد الحق أن يستخدم هذه المأساة لتحقيق أهدافه السياسية الخاصة». كان يبدو متعبًا وشاحبًا، يقف غير متوازن في مكتبه، وقد احمرت عيناه، وتابع: «هذا النوع من المآسي يجب أن يجمع الناس بدلًا من أن يفرقهم. كل أولئك المسؤولين عن الوضع في المنطقة يجب أن يتحملوا المسؤولية الكبرى تجاه شعوبهم، وشعوب الدول التي قدمت ضحايا في هذه الكارثة». غير أنه حتى اليوم لم يحمِّل نفسه المسؤولية في أي دور له في هذه المأساة، أو في الصراع المميت المتزايد الذي يقتل الآلاف ويهجر مئات الآلاف من منازلهم في القارة التي طالما حلمت بوضع تاريخها الدموي وراءها.

العالم- أو معظم الدول الغربية على الأقل- أصبح صفًّا واحدًا ضد بوتين بعد الرحلة رقم 17؛ فالصحيفة الشعبية البريطانية (ذا صن) صرَّحت أنه (صاروخ بوتين)، وحتى

وكالات أنباء عرفت برصانتها حددت المسؤولية بطريقة لا تقبل الشك. لولا بوتين لما ضُمت شبه جزيرة القرم، ولما اندلعت حرب في شرقي أوكرانيا، ولمَا تناثر حطام الطائرة في حقول القمح؛ تلك هي حرب بوتين، وتلك هي أقصى الجهود التي يبذلها دعاة الكرملين لتعكير المياه، بنشرهم ادعاءات كاذبة ونظريات تآمرية، لم تقدِّم شيئًا لتفادي اللوم، حتى إن لم يفهمها هو، فالآخرون من حوله يفهمونها. كان يمكنه أن يكبح جماح قادة متمردين، وأن يسحب القوات والمعدات الروسية لتسهيل التحقيق الدولي في إسقاط الطائرة، ويحيل المسؤولين عن مقتل 298 شخصًا إلى العدالة، ومع ذلك لم يكن مطلوبًا منه اليوم سوى الإقرار بالإخفاقات التي منيت بها رئاسته، والجرائم المثيرة الأخرى، والفساد الذي أُسس على نظام الولاء الذي أنشأه.

بوتين جعل من نفسه رمزًا لعودة روسيا، ويجب أن تتحقق الفكرة دون أي اعتراف بالخطأ. فقط حين تكون السلطة هي المعبود يمكن أن يكون الزعيم جزءًا لا يتجزأ من الدولة؛ «هنالك بوتين، وهنالك روسيا»، حتى إن الرجل الذي جاء بعد فلاديسلاف سوركوف عام 2011م بصفته إستراتيجيًّا سياسيًّا في الكرملين، فياتشيسلاف فولودين، قال في عام 2014م: «لا بوتين – لا روسيا»[18].

الخلاف بين روسيا والغرب بدا اليوم لا رجعة فيه، وقد كان متعمدًا، وسَّعت الولايات المتحدة عقوباتها قبل يوم واحد من إسقاط طائرة الرحلة 17، وفي أعقاب الحادث أرادت المعارضة في أوروبا أن تكثف عقوباتها، فتبخرت أيضًا. قطاعات كاملة من الاقتصاد، من ضمنها الخدمات المصرفية والطاقة، شملتها العقوبات بالمقاطعة، ولم تقتصر فقط على المسؤولين والأصدقاء المقربين لبوتين. وبحلول منتصف عام 2014م، وصلت قيمة رؤوس الأموال الهاربة التي خرجت من البلاد إلى 75 مليار دولار، في سعي إلى الحصول على ملاذات آمنة في الخارج، وبحلول نهاية العام غادرت البلاد 150 مليار دولار. تراجع الاقتصاد، وتراجعت الاستثمارات بشدة وذوت، وتحطمت قيمة الروبل، على الرغم من جهود المصرف المركزي لدعمه، وانخفضت أسعار النفط التي نسبها بوتين إلى المؤامرة بين

الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، والتي أحدثت توترًا في الميزانية واستنزفت الاحتياطيات التي وفرها بوتين خلال السنوات التي قضاها في السلطة، ودخلت روسيا في أزمة اقتصادية سيئة كتلك التي عصفت بالبلاد في عام 1998م وعام 2009م، ومن ثم باتت تكتيكات بوتين مرة أخرى ذات مردودات سيئة. هلل كثيرون في الغرب لرؤيتهم الأزمة الاقتصادية دليلًا على الألم الذي ألحقته إجراءات بوتين، لكن العزلة عضدت أيضًا وجهة نظر بوتين بأن الأزمات الاقتصادية والدبلوماسية التي تواجهها روسيا جزء من مؤامرة واسعة لإضعاف روسيا؛ أي لإضعاف حكمه.

في اليوم التالي لإسقاط طائرة الرحلة 17، أصدرت محكمة العدل الدولية في لاهاي أخيرًا أحكامها في القضايا المرفوعة من قبل المسهمين من شركة يوكوس حول مصادرة الشركة، مطالبة روسيا بدفع أكثر من 50 مليار دولار عن الأضرار، مستشهدة بدفاع بوتين الخاص عن مزاد جوهرة التاج للشركة قبل عشر سنوات على أنه دليل على تواطؤ الحكومة[19].

كل خطوة ضد روسيا يعتقد اليوم، ساخرًا، أنها هجوم عليه، ويحسبها ضده، ولكن أفعاله كذبت شعوره بالضيم والخيانة، الذي تشحذه الأزمة التي تكشفت في اللحظة نفسها التي حققت فيها روسيا حلمها الأولمبي. كان منيعًا في وجه التهديدات بفرض العقوبات أو العزلة الدولية؛ لأنه يعتقد اليوم أن آراء روسيا، ومصالحها، لن تحترم أبدًا، ويشعر أنه لم يحترَم كفاية، وخاصة بعد عودته إلى الكرملين في عام 2012م بعد أربع سنوات من الغياب والعمل رئيسًا للوزراء.

كان بوتين يشعر أنه غير مخطئ في تصرفاته ضد القرم، وفي وقت لاحق في شرقي أوكرانيا، ومن ثم لم يعد يهتم كيف سيرد الغرب، وأصبح هناك تغيير في سلوك بوتين الحاد بعد إسقاط طائرة الرحلة 17، وفقًا لصديقه القديم، سيرجي رولدوغن: «لقد لاحظت أنه بقدر ما يستثار يصبح أكثر صرامة». كانت الاضطرابات السياسية في أوكرانيا قد أثرت في بوتين شخصيًّا وبصورة عميقة، وكأنها سخرية من المدرسة التي أجبرته على الاندفاع فجأة

وبسرعة. ميركل- بحسب رولدوغن- أغضبته حين استهانت بمخاوفه من المتطرفين في صفوف الحكومة الجديدة في أوكرانيا، ومن تهديدات الأقلية الروسية في البلاد، والفظائع التي ترتكبها القوات الأوكرانية ضد المدنيين. كان الجميع يريدون لومه على الصاروخ الذي دمر الطائرة، ولكن ماذا عن الفظائع التي ترتكبها الحكومة الأوكرانية ضد أولئك الموجودين في شرقي أوكرانيا من ذوي الأصول الروسية؟ إن كان قد تحلى بالصبر مع ميركل وزعماء آخرين، فهو اليوم منزعج، وإن كان قد ساوم في وقت ما، فهو اليوم ثابت لا يتزعزع. أوضح رولدوغن: «كل هذا سبب إزعاجًا له وجعله أكثر لامبالاة، إن لم نقل أكثر عدوانية، هو يدرك أننا سنحلها بطريقة ما، لكنه لا يريد أن يساوم أحدًا بعد اليوم».

بالنسبة إلى بوتين فإن المواقف الشخصية أصبحت سياسة؛ فالبراغماتية التي تحلى بها في ولايتيه الرئاسيتين الأوليين ولَّت منذ مدة طويلة، لكن الاضطراب اليوم في أوكرانيا يشير إلى انفصال جوهري عن المسار الذي اتبعه منذ أن سلمه يلتسين الرئاسة على نحو غير متوقع في مطلع الألفية الجديدة. على مدى أربعة عشر عامًا في السلطة، ركَّز على استعادة روسيا لمكانتها بين القوى العالمية من حيث الاندماج في الاقتصاد العولمي، مستفيدًا ومستغلًّا المؤسسات المالية للسوق الحرَّة- مصارف، وسوق أسهم، وغرف تجارة- ويفيد كذلك كبار رجال الأعمال المقربين منه، وعموم الشعب الروسي بطبيعة الحال. اليوم يريد أن يثبت قوة روسيا مع اعتراف من الغرب أو من دونه، متجنبًا قيمه (العالمية)، وديموقراطيته، وسيادة قانونه، وعدَّه شيئًا غريبًا على روسيا، وهي أشياء لا يعتزمون أن تشمل روسيا ولكن لإخضاعها، فقد كتب الروائي فلاديمير سوروكين بعد قرار الضم: لقد أصبحت الدولة «رهينة المراوغات النفسية لزعيمها، أصبحت كل مخاوفه، ومشاعره، ونقاط ضعفه، وعقده؛ هي سياسة الدولة؛ فإذا كان مصابًا بجنون العظمة فعلى البلد كله أن يخشى الأعداء والجواسيس، وإذا كان لديه أرق فيجب على جميع الوزارات أن تعمل في الليل، وإذا كان ممتنعًا عن المسكرات فيجب أن يتوقف الجميع عن الشرب، وإذا كان في حالة سكر فيجب

على الجميع أن يسكروا ويرفعوا الكؤوس معه، وإذا كان لا يحب أمريكا، التي خاضت عشيقته الـ(كي جي بي) ضدها الحروب، فيجب على كل الأمة أن تكره الولايات المتحدة»[20].

المعارضة لبوتين- والبوتينية- ظلت قائمة، لكن الأحداث التي وقعت عام 2014م قادت إلى أبعد من ذلك؛ نحو هوامش المجتمع؛ فالقادة الذين كانوا يمثلون تحديًا له، أو قد يكونون ذات مرة هكذا، أصبحوا اليوم تحت الحصار أكثر من أي وقت مضى، وقد غادر بعضهم حتى قبل الأحداث في أوكرانيا، ومنهم غاري كاسباروف، الذي خشي اعتقاله الوشيك بعد أن هاتفت لجنة تحقيق ألكسندر باستريكين لوالدته، وتحدثت معها عندما كان مسافرًا؛ فالمكالمة الهاتفية من اللجنة اليوم تشير إلى التحذير بالقدر نفسه الذي كانت فيه الـ(كي جي بي) تقرع على باب المنزل ذات يوم[21]. أعقب كاسباروف عدد آخر من المطاردين من قبل المحققين: الخبير الاقتصادي سيرجي غوريف، الذي كان مستشارًا عند ميدفيديف، والمصرفي السابق من المصرف المركزي، سيرجي أليكساشينكو، وأحد نواب ألكسي نافالني الذي عمل في حملته المناهضة للفساد، فلاديمير أسكوروف، الذي حصل على حق اللجوء السياسي في بريطانيا، وبافل دوروف، مبتكر النسخة الروسية من الفيسبوك، ويدعى فكونتاكتي مثال الجيل الجديد الديناميكي من الروس، حيث باع ما تبقى له من حصته في الشركة وغادر البلاد، قائلًا في وقت لاحق: «لأنني بوضوح من المؤمنين بالأسواق الحرة، فإنه يصعب علي فهم التوجه الحالي للبلاد»[22].

توفي بوريس بيريزوفسكي، الرجل الذي ادعى أنه سيكون سلف بوتين، وأصبح العدو اللدود له، توفي خارج لندن في عام 2013م، منتحرًا ظاهريًّا، حيث وجد مشنوقًا بحبل في الحمام، وقد لازمته- حين كان مضطربًا- الشكوك التي لم تهدأ بأن حياته ستنتهي بطريقة شائنة.

وغيَّر ميخائيل خودوركوفسكي، الذي حصل على العفو من بوتين في شتاء عام 2013م، إقامته وانتقل إلى سويسرا، وأعاد افتتاح مؤسسته (روسيا المنفتحة) مرة أخرى لتعزيز

الديموقراطية في روسيا، وقدم نفسه على أنه زعيم محتمل للحكومة المؤقتة التي ستعمل ذات يوم حكومة انتقالية نحو روسيا الجديدة، لكنه لم يجرؤ على العودة إلى البلاد.

في روسيا، كل من تحدى سيرة الكرملين في أوكرانيا نُبذ؛ فالمؤرخ البارز أندريه زوبوف، عزل من منصبه في معهد موسكو الحكومي للعلاقات الدولية لمقارنته ضم شبه جزيرة القرم بضم هتلر للنمسا في عام 1938م، وهو الحدث الذي أعقبته الحرب وأدى في النهاية إلى سقوط الرايخ الثالث. قال مناديًا في صحيفة (فيدوموستي): «يا أصدقاء... التاريخ يعيد نفسه»[23]. كان إقصاؤه سريعًا وحادًّا كإقصاء الكاتب الساخر فيكتور شيندييروفيتش لمرثاته ذهبية المتزلج في دورة الألعاب الأولمبية.

المحرر المؤسس في صحيفة فيدوموستي، ليونيد بيرشيدسكي، أعلن منفاه الخاص في عمود كتبه، ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى تحدث إلى جيل من المثقفين الذين رأوا أن روسيا بوتين لم تعد متوافقة مع الحريات النسبية التي ترعرعوا عليها. وكتب في صحيفة موسكو تايمز أنه لم يكن فأرًا مذعورًا ليتخلى عن سفينة روسيا الغارقة: «أنا البحار الذي ما إن يشاهد القبطان يغيِّر مساره نحو ميناء ذي سمعة سيئة- ومن مكبرات الصوت يعلن نيته- حتى أُنزلُ بكل هدوء، ومن دون هلع، قارب النجاة، وأبدأ بالتجديف نحو الميناء الذي كنا جميعًا قد قررنا الإبحار نحوه»[24].

بقي آخرون يقاتلون في معركة تزداد عزلة ضد بوتين والقوى القومية التي أطلق لها العنان، منهم أليسكسي نافالني، الذي اعتقل إثر احتجاجه على أحكام قضايا بولوتنايا في ختام دورة الألعاب الأولمبية في سوتشي، وأمضى معظم سنة 2014م تحت الإقامة الجبرية حبيس شقة صغيرة له من العهد السوفييتي في مجمع سكني جنوبي موسكو.

وكان زعيم المعارضة الوحيد الذي خرج من القاعدة الشعبية للمجتمع الذي لم يكن مدينًا للكرملين ولديه ما يكفي من الجاذبية للفوز بالاستقلال عن نفوذه، مُنع شهورًا عدة من لقاء أي شخص سوى أقاربه، ومنع من استخدام الإنترنت، الوسيلة التي استخدمها بصورة

فعالة حتى جعل من نفسه مصدر تهديد لنظام بوتين. بتركيب معدات مراقبة حول شقته بوقاحة تامة، أمضى أيامه يلعب (غراند ثيفت أوتو)، ولم يبق لديه سوى حضور جلسات المحكمة، برفقة حراس من الشرطة، ولم تكفَّ النيابة العامة عن فتح قضايا جديدة، ومنها (سرقة) ملصق في الشارع كان هدية، وقضية أخرى أوصلت شقيقه أوليغ إلى السجن؛ وبات ظهوره في المحكمة أكثر وأكثر انتظامًا؛ فظلال الكرملين ظلت تلاحقه كما لاحقت من قبله المنشقين عنه.

قال داخل شقته في نهاية عام 2014م بعد تخفيف شروط اعتقاله إلى حد ما- معلقًا على ضم بوتين لشبه جزيرة القرم، والشيطنة الدولية التي تلت ذلك-: «ما الذي كسبناه؟ اليوم- بكل أمانة- لا أحد يحبنا». حتى أوكرانيا، الحليف الطبيعي، تكره اليوم روسيا إن لم يكن الروس.

ألقت الحرب بظلالها على حملة نافالني في مكافحة الفساد، والتي ما فتئت تفضح الروابط الإقطاعية الجديدة بين السلطة والمال، وأصبحت حربًا ضد كل شيء غربي، حتى أولئك الذين يدعون إلى مزيد من الانفتاح السياسي والشفافية. لقد أصبحت الشغل الشاغل للمجتمع، حتى النشرات الجوية المسائية التي يشاهدها نافالني على شاشة التلفاز كانت تحذر من أن الحالة في شرقي أوكرانيا «تميل إلى السخونة». قال نافالني إن بوتين أدخل البلاد في «حرب دائمة»، ومن ثم «تعبئة دائمة»؛ لقد حشَّد البلاد وراء مصير واضح خسرته ذات مرة، بغض النظر عن التكلفة في المكانة الدولية. ومع ذلك، فعقب كل قرار كارثي يصدره يصبح بوتين أكثر قوة، ولا سيما في بلد يعيش حالة الحرب، حتى بدت مواقفه لا تتكرر. كان ثمة تناقض لم يفهمه نافالني وآخرون في الداخل والخارج وقد قال عند استقالته: «على صعيد تقوية نظامه أفلح بذلك بوتين، وعلى صعيد المصالح الإستراتيجية لروسيا فقد خسرنا جميعًا»[25].

بوريس نيمتسوف، الذي انتخب لعضوية المجلس الإقليمي في ياروسلافل، واصل حملته ضد بوتين، معتمدًا على حصانته القانونية في المقعد التشريعي لتوفير قدر من الحماية له. وعبَّر عن سخطه من الحرب من خلال مدوناته على فيسبوك وتويتر، واصفًا بوتين بالغول الذي يحتاج إلى الدم لكي يبقى، وأن بوتين أبدى مقاومة ضد الأدلة المتزايدة على أن الروس كانوا يقاتلون ويموتون في أوكرانيا. وشكا من أن العقوبات الدولية والعزلة الدبلوماسية لا تزال غير فاعلة كثيرًا، ويريد جهودًا دولية أقوى لإنهاء نظام بوتين، وليس التفاوض معه. قال نيمتسوف: «هو ليس في عزلة»، وأضاف: «يتحدث إلى ميركل، ويتحدث إلى الجميع». واصل نيمتسوف بشجاعة يجمع الدلائل الواحد تلو الآخر في مفكراته، كتلك المتعلقة بغازبروم، والفساد في سوتشي، ثم إنه حاول أن يوثق تورط الروس في قتالهم شرقي أوكرانيا بناء على أوامر بوتين، سعيًا منه إلى أن يوقظ الضمير السياسي للشعب الروسي على الجرائم التي ترتكب، وسوف يسمي هذه الجرائم ببساطة (حرب بوتين)، ولن يتوقف عندها، على الرغم من ذلك[26].

وذات ليلة من فبراير/شباط 2015م، تعرض لإطلاق نار أودى بحياته حين كان يسير على الجسر المؤدي إلى الساحة الحمراء، فمات على مرأى من الكرملين، وكانت وفاته كوفاة بوليتكوفسكايا في عام 2006م، ضحية حرب كبرى. لم يكن ذلك تصرفًا عنفيًّا عشوائيًّا، ولكنه عملية اغتيال نفذت على درجة عالية من التنظيم، وفي أحد الأماكن الأكثر حراسة على هذا الكوكب. اتهم المقاتلون الشيشان باغتياله، وبالخصوص المجموعة المقربة من رمضان قاديروف، الرجل الذي اعتمد عليه بوتين في إعادة السيطرة على المنطقة التي كانت مهددة بالانفصال عن روسيا، ويعمل حكمه الوحشي اليوم دون ضوابط. المتحدث باسم بوتين الذي لا يعرف التعب، دميتري بيسكوف، قال: ليكن معلومًا أن بوتين صدم بهذه المأساة، لكن تأثير نيمتسوف أيضًا لم يكن كبيرًا.

كما هو الحال مع اغتيال بوليتكوفسكايا أو ألكسندر ليتفينينكو أو سيرجي ماجنيتسكي، قد لا يكون بوتين متورطًا شخصيًّا، أو ربما ليس له علم بذلك، كما يصر أنصاره، ومع ذلك كان من الصعب أن نساجل بأن حقبة بوتين لم تغسل بدم أشد منتقديه.

في 31 يوليو/تموز عام 2014م تجمَّع بعض أغنى أغنياء روسيا في موسكو في مقر اتحاد كرة القدم الروسي للتعامل مع نتيجة غير متوقعة من ضم بوتين لشبه جزيرة القرم، وكان من بينهم مسؤولون في الاتحاد، وكذلك أصحاب فرق محترفة أبرزهم: سيرجي جاليتسكي، صاحب سلسلة من الأسواق التجارية ونادي كراسنودار لكرة القدم، وسليمان كريموف، الملياردير الذي يملك أنجي ماخاتشكالا في داغستان، وفلاديمير ياكونين، الذي رعت سككه الحديدية الروسية لوكوموتيف موسكو، وكان على جدول الأعمال تصويت اللجنة التنفيذية للمؤسسة على استيعاب ثلاثة أندية في شبه جزيرة القرم في الاتحاد الكروي الروسي، والأندية التي تجمعت هناك وكان عندها تحفظات من خطر العقوبات التي يمكن أن تمتد إليهم ولأنديتهم، ويمكن أن يمنعوا من السفر إلى الغرب، وأن يطردوا من المسابقات في أوروبا. قال جاليتسكي شاكيًا: «ليس لدي أي شكوك أننا جميعًا سوف نقع تحت العقوبات»، جاء هذا المقال نقلًا عن حديث متبادل سُجِّل خلسة وسرِّب إلى صحيفة نوفايا غازاتا[27]. أعرب عن إحباطه من أن كل شيء بناه على مدى ربع قرن- سلسلة المتاجر التي تسمى ماغنيت التي يعمل بها 250 ألف شخص، وتبلغ قيمتها 30 مليار دولار- يمكن أن تضيع. شاركه من كانوا في قاعة مؤتمر اللجنة القلق، إضافة إلى خوفه من إغضاب (الرئيس التنفيذي). جاليتسكي وآخرون كانوا يأملون حقًّا تجنب اضطرارهم إلى التصويت، وناقشوا على نحو موارب الحاجة إلى ذلك، وإن كان ثمة بيان يصدر عن وزير الرياضة، فيتالي موتكو، فيمكن أن يكون مفيدًا مثلما كانت كلمة بوتين نفسه. لا أحد منهم يريد أن يوضع على سجل العقوبات نتيجة التصويت مع إصرار رئيس الاتحاد؛ كما أنهم لم يرغبوا في المخاطرة بعصيان بوتين في عدم تصويتهم.

قال: «من الواضح أنني سأستعد للمعاناة»، لكنه لن يفعل ذلك إلا إذا كان خيار (الرئيس التنفيذي) بهذا الشأن واضحًا، وصرَّح جاليتسكي: «بعد ذلك سوف أكون جاهزًا لتدمير كل ما بنيته في أكثر من خمسة وعشرين عامًا».

وعندما عبَّر الرئيس والمالك المشارك في (سسكا موسكو)، يفجيني غينر، عن عدم رغبته، التفت إليه بنزق رئيس النقابة وياكونين، واصفين موقفه بالموقف (الرديء)؛ قال له ياكونين: «بلدنا تحت العقوبات، ورئيسنا يقف وحيدًا على الحافة، وأنت تتحدث عن شد البلاد إلى نقطة يمكن أن يفرضوا من خلالها عقوبات إضافية؟ وهم سوف يفعلون ذلك بصرف النظر عما تفعله، حتى إن زحفت أمامهم على بطنك سيفعلون ذلك! هل تفهم؟ لذلك إما أن تخرج من هذا البلد، أو تتصرف على نحو ملائم، كأي مواطن في هذا البلد».

بعد تسعة أيام من توضيح بوتين لأمنياته، وافقت اللجنة التنفيذية للاتحاد على ضم الأفرقة الثلاثة الجديدة في الدوري الروسي للمحترفين، وقال سيرجي ستيباشين، سلف بوتين في رئاسة الوزراء وعضو اللجنة التنفيذية للاتحاد اليوم، محذرًا: «لا حاجة أصلًا إلى التوجيهات؛ شبه جزيرة القرم أساسًا أرض روسية».

باتت شبه جزيرة القرم الصرخة الجديدة التي من حولها تتوحد الأمة خلف بوتين، وهي الحجة التي أنهت كل نقاش. الضم رفع شعبيته فوق 85 في المئة، وحالة الحصار التي تبعته- ضُخِّمت من قبل دعاة الأورويليان (نسبة إلى جورج أورويل) على التلفاز الرسمي- كانت دعمًا مستدامًا لشعبية بوتين في البلاد لأشهر قادمة. بعد ربع قرن من الانفتاح الاقتصادي والثقافي منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، بدأ ينظر معظم الروس مرة أخرى إلى العالم الخارجي وكأنه العدو على الأبواب، الذي يخافونه ويجب مقاومته. ذهنية الحصار تسوغ أية تضحيات؛ و«عندما يشعر الروسي بأية ضغوط خارجية، فلن يتخلى عن قائده مطلقًا»، هذا ما قاله أحد نواب رئيس وزراء بوتين، إيجور شوفالوف، الذي يُعَد أحد الليبراليين في حكومته[28]، وأضاف: «إننا سنبقى على قيد الحياة رغم الصعاب في البلاد؛ نأكل كمية أقل من الطعام، ونستخدم كمية أقل من الكهرباء».

الخوف من اللوم، أو ما هو أسوأ، أسكت بكل تأكيد الأصوات المعارضة، لكن بوتين استعاد مكانه في قمة السلطة، بوصفه الزعيم الذي لا جدال عليه في بلد لم تعد الديموقراطية فيه إلا في زيف الانتخابات الدورية.

بعد عودته إلى السلطة في عام 2012م عاد بلا هدف واضح سوى ممارسة السلطة ذاتها، فقد وجد بوتين اليوم العامل الموحد لأمة متنوعة كبيرة وطالما بحث عنه؛ وجد غرضًا ألفيًّا (للألف الثالثة) للسلطة التي يشغلها، الغرض الذي صاغ به بلاده أكثر ما صاغه أي زعيم آخر حتى اليوم في القرن الحادي والعشرين، فلم يُعِد الاتحاد السوفييتي ولا الإمبراطورية القيصرية، لكنه صاغ روسيا الجديدة بخصائص وغرائز كل منهما على حد سواء، ونصب نفسه أمينًا عامًّا ومليكًا لا يستغنى عنه، في بلد استثنائي أيضًا؛ «لا بوتين، لا روسيا»، لقد وحَّد البلاد وراء زعيم وحيد يمكن أن يتخيله اليوم أي شخص؛ لأنه كان- كما في عامي 2008م و2012م- لا يرغب في ظهور أي بديل له.

عندما (اختفى) عن الرأي العام عشرة أيام في مارس/آذار 2015م، بدت النخبة السياسية مشلولة، وامتلأت وسائل الإعلام بتكهنات محمومة؛ هل بوتين مريض؟ هل هناك انقلاب؟ هل يواجه صراعًا داخليًّا على السلطة نتجت عن اغتيال نيمتسوف، الذي اقتُفِي أثر قاتليه إلى الشيشان التي احتفظ بها في فلك روسيا تحت زعامة رمضان قاديروف؟ كان ثمة شائعات جديدة أنه أصبح أبًا لطفل آخر من ألينا كاباييفا، التي استقالت من مقعدها في مجلس الدوما، وانضمت إلى المجموعة الوطنية للإعلام، التي يسيطر عليها مصرف (روسيا) وصديق بوتين القديم، يوري كوفالتشوك، في حين أن آخرين كانوا على قناعة بأنها مجرد جولة جديدة من العلاج الطبي في الظهر، أو الجراحة التجميلية. أيًّا كان التفسير فقد أثبت غيابه المقتضب وغير المنطقي عن الرأي العام، في نهاية المطاف، أنه وحده الذي يوفر الاستقرار الذي يبقي نظام النهب غير العملي في مكانه، ويبقي كذلك فصائل نخبة بوتين في توازن ثابت.

اليوم حكم بوتين لم يكن مستمرًّا أكثر مما كان حتميًّا، ومع ذلك بدا نظامًا قاسيًا، ولن يواجه أي تحد واضح لسلطته قبل الانتخابات الرئاسية المقرر إجراؤها في عام 2018م. ويمكن بموجب القانون أن يبقى ست سنوات أخرى بعد ذلك، وإذا تنحى عام 2024م فلن يكون قد بلغ بعد الثانية والسبعين من العمر، وقد توفي بريجنيف في مكتبه في الخامسة والسبعين، وستالين في الرابعة والسبعين. وربما يسلَّم السلطة لزعيم جديد، ربما لميدفيديف مرة أخرى، أو لأي عضو آخر من الدائرة الداخلية، وهذا الأمر يعود إليه في نهاية المطاف؛ فمصير روسيا اليوم يتداخل مع مصيره، والاندفاع إلى الأمام، كما الترويكا **في النفوس الميتة** لجوجول، يقود إلى المصير المجهول، ربما بوتين نفسه لا يعرف إلى أين، سوى أنه إلى الأمام، متهور، غير تائب، شجاع. «الهواء يلعلع، يتحطم إلى شظايا، وينذر بالرياح»، كتب جوجول عن الترويكا[29]، «كل شيء على هذه البسيطة إلى زوال، تبدو عليه الريبة، دول وأمم أخرى تتنحى لتفسح الطريق لغيرها».